أعلام معاصرون:

محمـــــد عبد المطلب

١٨٧٠ — ١٩٣١ م

للشيخ محمد رجب البيومى

(بقية ما نشر في العدد الماضى)

ولقد انتقل رحمه الله إلى عدة مدارس ابتدائية وثانوية حتى اختير أستاذاً بمدرسة القضاء الشرعى ، وكانت شهرته قد طارت إليها بما نشره من حين لآخر فى الصحافة ، فاستقبل بالتجلة والترحيب ووجد نفسه أمام عقول مستنيرة تفهم آراءه وتسير معه فى اتجاهه ، فأخذ يغرس فى نفوسهم حب الأدب والفضيلة ويدفعهم إلى التعصب للعربية فى وقت هوجمت فيه من أعدائها المتعصبين . ولقد غالى فى ذلك مغالاة عدها الكثيرون رجعية وجمودا فكان لا يحفل بما تخرجه المطبعة العربية من الكتب الحديثة بل يحث على الانتفاع بالآثار الأدبية القديمة أولا وقبل كل شيء ، فإذا ما درست دراسة وافية كان المجال فسيحا لغيرها ، ثم شفع القول بالعمل فأخذ ينهج فى إنتاجه نهج القدامى من فطاحل العصر العباسى ، فكان يبتدىء قصائده بالغزل الرائق ، مكثرا من الغريب المجلجل ، مستمينا بخياله البدوى فى التوليد والتصوير ، وتلك منة كبرى أسداها إلى الأدب العربى ، فهو يذكر الناس بين الفينة والفينة بمن ينسج على منوالهم فيفيئون إلى الدواوين القديمة باحثين مستفيدين ، ولا شك أن الأدب العربى كان فى مبدأ هذه النهضة محتاجا إلى المحافظ أكثر من احتياجه إلى المجدد ، وإلا فكيف نتشدق بالابتداع والتجديد ، وتراثنا الرائع القويم لا يزال فى ظلمات النسيان تشيح عنه الوجوه وتستعجمه الأفهام ! !

وأحب أن أكشف عن حقيقة مطموسة ، فالذائع المشهور أن أمير الشعراء هو أول من كتب الروايات المسرحية الشعرية . فقد أصدر أولى رواياته « كيلوباتره » سنة ١٩٢٨ م ثم أعقبها بعدة روايات مشهورة ، والواقع أن عبد المطلب قد سبقه إلى ذلك بعشرين عاماً ، فقد نظم فى سنة ١٩٠٩ وما بعدها بضع روايات شعرية ذات فصول ومناظر تمثيلية ، وقد جعلها متينة الحوار ، سريعة الحركة ، حسنة المفاجأة . وكلها عربية بدوية تتخذ أسماء لامعة فى تاريخنا الادبى « كالمهلهل » و « امرىء القيس » و « ليلى العفيفة » ومن المؤسف حقاً أنها لا تزال فى غمرة الجحود مخطوطة بدار الكتب المصرية ، ولعلنا نجد من يخرجها للناس فى ثوبها اللائق ، فهى وحدها الدليل على تجديد عبد المطلب وتنبهه إلى عنصر هام من عناصر الشعر قد أثبتت الحياة مزيد احتياجنا إليه ، فليت الذين يرجفون بخفاف الشاعر وجموده يلتفتون إلى هذه المأثرة الخالدة ثم يحكمون !! .

وأنت إذا نظرت إلى المآخذ التى توجه إلى شعره تجدها منصبة على تنقله فى الأخيلة الصحراوية ، وهيامه بالأماكن البدوية وإكثاره من الغريب الفحل ، مما يعتبر محاكاة وترسما لا تجديداً وابتداعاً ، وفى رأيى أن عبد المطلب بالذات غير ملوم فى ذلك ، لأنه عربى صريح نشأ فى بيت يفخر بانتمائه إلى الجزيرة العربية ، فهو حين يهتف بنجد والعقيق وسلع إنما يعبر عن وجد مشبوب ، ويحن حنيناً محرقاً إلى أماكن يعتز بها مدى الحياة ، فلا عليه إذا جال فى هذا الميدان وصال ، وأحرى بنا أن نوجه هذا النقد إلى غيرى كالبارودى مثلا ممن لا ينتمون إلى الجزيرة ولا يشعرون نحوها بعاطفة وانجذاب ! !

وإذا كنا نعد من حسنات الفرزدق على اللغة العربية أنه أحيا ثلثها فى شعره ، فلماذا ننكر على عبد المطلب إكثاره من الغريب المستساغ فى وقت جاهر فيه أعداء اللغة بعجزها عن مسايرة الحياة ، ألا يكون ذلك توجيهاً صالحاً منه إلى تحصيل اللغة ودراسة معاجمها الواسعة حتى تسعفنا بما نفتقر إليه من كلمات ! !

هذا وقد شاءت الظروف السياسية أن ينتقل من مدرسة القضاء الشرعى إلى مدارس وزارة الأوقاف !! فحيل بينه وبين العقول الممتازة التى كانت تنتفع بآرائه وتوجيهه ، ووجد نفسه أمام طائفة أخرى لا تزال فى الدور الأول من التعليم ! !

وقد اعتبر الفقيد وجوده فى مدارس الأوقاف محنة قاسية قابلها بالصبر الجميل ، على أنها كانت فى الواقع محمدة جميلة . فقد خلص من دروسه العميقة فى القضاء الشرعى ، وعكف على الإنتاج

الأدب الرفيع، وكانت الحرب العظمى الأولى فى ذلك الوقت مندلعة اللهيب . ثم تلتها الثورة المصرية الصاخبة ، فوجد الشاعر من أحداث زمانه ميادين شاسعة يحلق فيها بخياله الجوح ، وحين نطالع ديوانه نجده حافلا بالقصائد السياسية التى تعتبر فى الواقع وثائق تاريخية صحيحة يحتج بها الباحثون ، فما من عاصفة سياسية هبت بمصر إلا خلدها عبد المطلب فى شعره الرائع — إلى جانب ما كان يكتبه من مقالات طنانة الدوى عميقة التأثير — ولعلك تسأل معى لماذا لم تذكر سياسيات الشعرية كما ذكرت سياسيات حافظ إبراهيم ؟ والجواب على ذلك أن الشعر السياسى شعر شعبى لا يدور على الألسنة إلا إذا كان سهلا واضحاً يفهمه العامى قبل المثقف . وقد كان حافظ رحمه الله يأتى فى السياسيات بنوع خاص بما يناسب عقل الجمهور ، فطار شعره السياسى كل مطار . ورواه الريفيون فى القرى قبل المثقفين فى الأندية ، أما عبد المطلب فقد كان محافظاً على نسجه الرصين وجزالته القوية ، فنجا شعره من العامة وظل منهلا رائقاً يرده المثقفون ، وإذا شئت الدليل على ذلك فاقرأ قصيدة حافظ فى سعد زغلول يوم اعتدى عليه ومطلعها

الشعب يدعو الله يا زغلول أن يستقل على يديك النيل

ثم اقرأ قصيدة عبد المطلب فى هذا الموضوع

رمى وسهامُ الله فى نحره ردد فلا تأس حاطتك العناية يا سعد

فإنك بلا شك ستسايرنى فيما أقول

وأود أن أنبه القارىء إلى قصيدة عبد المطلب فى الحرب العظمى فهى وحدها كافية للتدليل على مذهبه فى الشعر . ولقد عبر فيها عن إحساس الشعب المصرى أصدق تعبير ، فكانت سوطاً ناريا يلهب ظهور الإنجليز ، وقد مكثنا سبعين عاماً نضج من المغتصبين ونرى بأعيننا كتائب الاستعمار رائحة إلى الحانات والمواخير ، ينتهكون الحرم . ويصرعون العفة ، ولكن لم نجد فى شعرائنا من صوَّر هذه المناظر المخجلة فى جزالة لفظ وقوة أسر ، غير عبد المطلب حين قال :

تبصر خليلى هل ترى من كتائب دلفن بها كالسيل من كل مودق

سراعاً إلى الحانات تحسبهم بها نعاماً تغشى رزدقاً خلف رزدق

يهولك مرآها إذا اصطخبت بهم مواخير تجلو فاسقات لفسق

إذا أجلبوا فيها حسبت صفادعاً تجاذبن إيقاعاً على صوت نقنق

زعانف شتى من طويل مشذب طرى القرى عارى الأشاجع أعنق

ترى منه فى بحبوحة الأمن باسلا وإن يدعه الداعى إلى الكر يحبق

والقصيدة كلها وقد جاوزت المائتين تضرب على هذا الوتر الرنان ، وطبيعى أنها لم تنشر فى حينها بل ظلت فى مدرجة النسيان حتى قرأناها بالديوان !! والعجيب أن عبد المطلب — بعد انتقاله من سوهاج — لم ينشر خرائده تباعا فى الجرائد اليومية كما فعل قرناؤه بل ظل محتفظاً بها فى مسوداتها غير اليسير مما أنشده فى المحافل العامة وسارعت الصحافة إلى تدوينه !! ولعلك تقف معى من هذا على تواضعه الجم وعزوفه عن الشهرة ، ولا أدرى أى ذخيرة غالية قدمها الأستاذ الهراوى إلى العربية يوم جمع قصائد الفقيد فى سفر خاص فكانت كأس النديم وعبير المشتاق

على أن مدة الشاعر لم تطل بوزارة الأوقاف فى سنة ١٩٢١ تقلد وزارة المعارف المرحوم جعفر والى باشا وكان ذا اتصال حميد بأرباب الفكر وحملة اليراع، فاغتنم عبد المطلب هذه السانحة وتقدم إليه آملا فى الأخذ بيده ، وكان الوزير الأريحى عند ظنه الحسن به فقد استصدر أمراً من مجلس الوزراء بنقله إلى التدريس فى دار العلوم مع إعفائه من الكشف الطبى إذ كان الشاعر يشكو ضعفاً فى قوة إبصاره، ولا تسل عن فرحته بالعودة إلى وسط ممتاز يشجعه على الدرس الجيد والبحث المفيد ، ولم يرغير الشعر مكافأة طيبة يهديها إلى معالى الوزير فشكره بقصيدة عامرة قال فيها

أنا الروض حياه ولىٌّ بديمة عليه بأسباب الحياة استهلت

عداه الردى أحيا لمصر وأهلها مآثر من عهد ابن يحيى تولت

(جزى الله عنا جعفراً حين أزلقت بنا نعلنا فى الواطئين فزلت)

ولم يلهه التدريس بدار العلوم عن الاتصال بالجمهور عن طريق الصحافة، فقد كان ينشر أبحاثه الأدبية دراكاً ، وحين ظهر كتاب الشعر الجاهلى للدكتور طه حسين سارع إلى نقده فى جريدتى الأهرام والمقطم ، ثم تشعب به النقاش فخاض المعركة الحامية بين الجديد والقديم . وأخذت الردود الكثيرة تتوالى على نقده وهو يناقشها مأخذاً مأخذاً حتى عد عند الكثيرين عميداً للمدرسة القديمة الاتباعية ، ولقد طبعته هذه العادة بطابع خاص ، فكان يتعمد فى أكثر إنتاجه أن يكون كما عهده الأدباء فى صدر شبابه جزلا فخلا . وأذكر أنه ما أقيمت حفلة أدبية إلا ودعى إليها عبد المطلب باعتباره ممثلا للمذهب القديم أصدق تمثيل . وكان السامعون ينتظرون الديباجة العربية منه فى شوق وانجذاب ، فى الحفلة التى بويع فيها شوقى بإمارة الشعر وقف عبد المطلب يلقى قصيدته فهمس أديب كبير فى أذن شوقى امرؤ القيس! امرؤ القيس!

وتكلم عبد المطلب فضج الحفل بالتصفيق الشديد ! !

ولقد كان مظهره فى الجامعة المصرية يوم ألقى قصيدته العلوية سنة ١٩١٩ رائعاً جميلا فقد ركب ناقته ومضى ينشد طويلته متشبهاً بأجداده البادين، وكان الحفل الحاشد مأخوذاً بما يرى ويسمع، فمن تدفق فى البيان وطرافة فى الموضوع، إلى غرابة فى المنظر وبعد فى الاتجاه، ولقد طال نفسه فيها حتى جاوزت قصيدته أربعمائة بيت تقرؤها فى متعة وارتياح فلا تجد غير القوى الرصين ! !

أما أخلاقه الرفيعة فقد كانت دينية مثالية تبحث عنها فلا تجدها عند الذين يتظاهرون بالورع ويتشدقون بالعبادة وليسوا من ذلك فى قليل أو كثير، فعبد المطلب قد درس التعاليم الإسلامية ثم طبقها على نفسه واتخذها منهجاً يسير عليه. فكان عف اللسان، صلب العقيدة، راسخ الإيمان طاهر الذيل، متمسكا بتقاليد قومه، راغباً فى الزهد الصوفى الذى ورثه عن أبيه، وقد اشترك فى جمعيات إسلامية كثيرة. كالمواساة الإسلامية والشبان والهداية، والمحافظة على القرآن الكريم باذلا لها ما يستطيع بذله من مال وعتاد

قال شيخنا الأستاذ الاسكندرى « وكان شديد العصبية لسلف هذه الأمة وقوادها وعلمائها وشعرائها فلا يكاد يسمع بحديث مزر عليها أو غاض من كرامتها حتى يقضب لها غضبة الليث الهصور وينبرى له تزييفاً وتهجيناً نظماً وكتابة وخطابة »

هذا وقد انتدب فى سنة ١٩٢٨ للتدريس فى تخصص اللغة العربية بالأزهر الشريف، وظل به حتى لقى ربه راضياً مرضياً عنه بما قدم لدينه وأمته من العمل الصالح، وكان قد أحيل إلى المعاش من دار العلوم قبل وفاته بشهر واحد. وحين جاءه اليقين خرجت الدنيا تشيعه فى حفل مهيب التقى فيه أصدقاؤه بتلامذته المديدين باكين منتحبين، ورأى الناس الوفاء للأدب والعلم متمثلاً حول نعشه فى جمع حاشد وصفه الهراوى فقال :

لقد مشت الدنيا وراءك خشعاً
وما كنت فى سلطان حل ولا عقد
ألا إنها كانت قلوباً تداعت
على الود تمشى حول نعشك فى حشد

محمد رجب البيومى

تعقيبات

بين العامية والعربية :

تقدم الأستاذ محمد فريد أبو حديد عضو المجمع اللغوى وعميد معهد التربية إلى المجمع ببحث مطول عن موقف اللغة العامية من العربية الفصحى عرض فيه لخصائص العامية وما لها من الآثار الجميلة فى معارض الكلام كالزجل والموشحات والقوما والدوبيت، وتناول ما كان لها من تطور فى الشرق وفى بلاد الأندلس ثم فى باقى الجهات الأخرى، وانتهى من ذلك إلى القول بوجوب دراسة العامية والاهتمام بها ووضع الوسائل للتقريب بينها وبين الفصحى حتى تلتقى لغة الكتابة ولغة الكلام.

وليست هذه الدعوة التى يرتفع بها صوت الأستاذ أبو حديد اليوم بالأمر الجديد، ولعلها دعوة قديمة بالية ارتفع بها الصوت فى مصر منذ أكثر من خمسين عاماً، وثارت فيها معاجة الكلام واشتجرت حولها أقلام الباحثين، وقد استطاع أساتذة ذلك الجيل أن يصفوا حسابها وأن يفرغوا من تفنيدها وأن يأتوا فى ذلك بما لا مزيد عليه.

كان رأس تلك الدعوة رجل انجليزى موظف فى مصر يدعى « ويلكوكس »، وكان هذا الرجل داهية، درس اللغة العربية، واللغة العامية أيضاً وكان عمله الأصيل فى شئون الرى والصرف، ولكنه أثار بين المصريين الدعوة إلى العامية بحجة أنها لغة الكلام، وأنها قريبة من الأفهام، ومن العجيب أن ذلك الرجل أنشأ مجلة بمذاك سماها « الأزهر »، وكان يصطنع الغيرة على العربية وعلى الاسلام وعلى المصريين فيما يدعو إليه، وتحت ستار تلك الغيرة كان يحاول أن يسدد الطعنة النجلاء إلى العربية وإلى الاسلام وإلى المصريين.

وبيننا كثيرون يذكرون أن الأستاذ الجليل أحمد لطفى السيد باشا كان له مجال فى معرض تلك الدعوة، فقد كتب مقالين فى « الجريدة » أيام كان يقوم على تحريرها يدعو فيهما إلى تعمير